المحاضرة الرابعة/ الإرهاصات والجذور الأولية لنظرية النقد الثقافي:

إن الحديث عن الإرهاصات الأولى للنقد الثقافي هو حديث في مضمرة عن تلك الانجازات التي قدمتها كلا من **الدراسات الثقافية** في مدرسة بيرمنغهام وما قدمته مدرسة فرانكفورت في أجبالها الثلاثة خصوصا عند الحديث عن **صناعة الثقافة**، وكذا ما حققته **التاريخانية الجديدة أو الجماليات الثقافية** التي أسسها ستيفن غرنبلات في قراءتها المعرفية وكلها خطوات سنتحدث عنها تواليا ونبين كيف استفاد النقد الثقافي منها في تأسيس رؤيته الجديدة.

أولا: الدراسات الثقافية:

ارتبط النقد الثقافي عند ظهوره في الثقافة الغربية بشكل أساسي بما كان يعرف في تلك الفترة **بالدراسات الثقافية**، فقد خرج النقد الثقافي من بوتقة هذه الأخيرة التي نشأت سنة 1964 في حضن **مدرسة برمنغهام** الألمانية على يد كل من **ستيوارت هول وريتشارد هوغارت** فقد تناولت مجلة **عمل أوراق الدراسات الثقافية** الصادرة عن هذه المدرسة مواضيع متنوعة شملت وسائل الإعلام والحركات الاجتماعية ومسائل الأيديولوجيا وقضايا الجندر والثقافة الشعبية...وغيرها، والدراسات الثقافية كما يقول إدريس الخضراوي في كتابه **الأدب موضوعا للدراسات الثقافية** «ليست نظرية أو نموذجا علميا قائما على مفاهيم يحكمها التجانس والانتماء أنطولوجيا إلى حقل علمي محدد، وإنما هي اتجاه في القراءة يستفيد من كل المدراس النقدية والاتجاهات الفكرية، خصوصا تلك التيارات الفكرية التي تعبر عن حس المعارضة والمقاومة»[1]، والسبب الذي جعل الدراسات الثقافية تستفيد في قراءاتها من مختلف التوجهات الفكرية هو الموضوع الذي ألزمت به نفسها في الدراسة وهو الثقافة الذي رأينا سابقا عدم قدرة المفكرين على تحديد مفهوم خاص به وفي هذا الصدد يقول ديورينغ في

[1]– إدريس الخضراوي: الادب موضوعا للدراسات الثقافية، جذور للنشر، المغرب، ط1، 2007، ص 36.

كتابه **الدراسات الثقافية مقدمة نقدية** تهتم «الدراسات الثقافية بدراسة الثقافة أو الثقافة المعاصرة من حيث أسسها التاريخية وصراعاتها، فهي تحلل النصوص من زوايا مختلفة وتركز على المعنى الذي تولده النصوص من خلال دراسة شكلها وبنيتها وسياقاتها وأسسها النظرية وهذا يفترض أن الدراسات الثقافية فضفاضة متداخلة الاختصاصات وتتبع مناهج ومقاربات متعددة، منها مثلا النظرية الاجتماعية أو النظرية السياسية والنسوية والاقتصاد السياسي والمتاحف والفن والسياحة ووسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي والأفلام»[1]، وتركز هذه الدراسات بالدرجة الأولى على الثقافة اليومية كونها ملزمة بتعرية وفضح الدراسات الأكاديمية التي كرّست لما يمكن أن نسميه **بالمعتمد** أو **الكانون** الذي ساهم النقد الأدبي في حد ذاته بمأسسته، إن ما يحدث مع هذا التغيير كما يوضح جوناثان كولر في كتابه النظرية الأدبية هو الدراسات الثقافية وهي «نشاط رئيسي في العلوم الإنسانية في التسعينات انصرف فيه بعض الأساتذة عن دراسة ميلتون إلى مادونا وتحولوا عن دراسة شكسبير إلى الدراما التليفزيونية إنهم يهجرون دراسة الأدب برمته»[2].

ومع هذا الهجر إلا الدراسات الثقافية قدمت للنصوص الأدبية الكثير من الأدوات التي استطاع عن طريقها أن يتحرر من سطوة الجمالي الذي قيد حريته، فبطرح أسئلة ترتبط بالهوية سواء الفردية أو الجماعية، وما يسمى أيضا بالتمييز العنصري سواء ضد المرأة أو السود، ودراسة ما يطلق عليه بالمنتجات الثقافية المعدة للاستهلاك، وتركيزها على طابع التعدد والاختلاف الثقافي شكلت طرحا جديدا يعكس مدى غنى النصوص الأدبية بما هو ثقافي، فهذا النوع من الدراسات إذا أصبح ينظر للنص الأدبي كما يقول كولر بوصفه **ممارسة ثقافية** وليس **ممارسة لغوية.**

[1]– سايمون ديورنغ: الدراسات الثقافية مقدمة نقدية، تر: ممدوح يوسف عمران، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 2015، ص ص10–11.

[2]– جوناثان كولر: النظرية الأدبية، تر: رشاد عبد القادر، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2004، ص55.

ربط جوناثان كولر ظهور الدراسات الثقافية بمصدرين أساسيين، حدد المصدر الأول منذ بداية الستينات في **فرنسا** وربطها بقراءات **رولان بارت** الثقافية خصوصا في كتابه **أسطوريات** فقد حاول رولان بارت في هذا الكتاب تقديم قراءة موجزة «لدائرة من النشاطات الثقافية بدءا من المصارعة الاحترافية والاعلان عن السيارات ومواد التنظيف، إلى الثقافية الأسطورية كالخمر الفرنسية ودماغ آينشتاين»[1]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى حدد كولر المصدر الثاني للدراسات الثقافية ويرى أنه تمثل في النظرية **الأدبية الماركسية البريطانية** فقد سعى مؤلف **رايموند وليامز الثقافة والمجتمع** ومؤلف مؤسس مركز بيرمنغهام للدراسات الثقافية المعاصرة ريتشارد هوغارت **استخدامات معرفة القراءة والكتابة** إلى «استعادة ثقافة الطبقة العاملة الشعبية والتي أُغفلت لما عُدت الثقافة أدبا رفيعا. وتلاقى هذا المشروع في استعادة الأصوات المهملة، وفي النهوض بالتاريخ من الأدنى، تلاقى مع تنظير آخر للثقافة حيث حلل الثقافة الجماهيرية بوصفها تكوينا أيديولوجيا جائرا بما أن المعاني تعمل على أن تموضع القراء والمشاهدين بوصفهم مستهلكين وأن تبرر أعمال دولة القوة»[2]، وبهذا جاءت الحاجة الماسة للنقد الثقافي فالأدب لم يعد بريء بتعبير إدوارد سعيد ولذا استوجب التأسيس لرؤية جديدة تتجاوز الجمالي وتتوغل في النصوص الأدبية من أجل كشف المضمر الثقافي الذي تحمله فمن منا مثلا اعتقد أن جوزيف كونراد أكبر المثقفين الذي كانوا ضد الاستعمار وبعد قراءة جادة لأدبه من قبل إدوارد سعيد يصل إلى أن رواية **قلب الظلام** تحمل في مضمرها نسقا كولونياليا يعتبر الاستعمار ضرورة لتلك البلدان التي قامت الامبراطورية البريطانية والفرنسية باستعمارها.

تجدر الإشارة أن هناك من المفكرين الذين لا يفرقون بين النقد الثقافي والدراسات الثقافية ويعتبرانها تصب في منحى واحد، ولكن هناك أيضا من يفرق بينهما ويرى الفرق

[1]– جوناثان كولر: النظرية الأدبية، ص ص 56–57.

[2]– المرجع نفسه، ص ص 57–58.

بينهما هو بمثابة الفرق بين الدراسات الأدبية والنقد الأدبي، أي أن النقد الثقافي هو المنهج والأداة الذي عن طريقه تحلل الدراسات الثقافية النصوص بمختلف أنواعها سواء الأدبية أو غير الأدبية. هذا فيما يخص الجانب الأول الذي نشأ منه النقد الثقافي وسنحاول الآن أن نتحدث عن الرافد الآخر والمتمثل في التاريخانية الجديدة.

ثانيا: التاريخانية الجديدة:

ظهرت التاريخانية الجديدة سنة 1982 على يد مؤسسها ستيفن غرونبلات في مقال له تحت عنوان **نحو شعرية الثقافة**، وشعرية الثقافة هو المصطلح الذي وضعه في البداية وذلك سنة 1980 من أجل التعريف بمشروعه الجديد في قراءة النصوص الأدبية، وفي سنة 1988 عاد ستيفن غرونبلات من جديد واعتبر أن مصطلح التاريخانية الجديدة هو مصطلح غير كاف للتعبير عن مقصده في تحليلاته النقدية، ولهذا رجع من جديد لاستخدام مصطلح **شعرية الثقافة** واعتبر أن **التاريخانية الجديدة** هي مجرد ممارسة ولا تستطيع أن تكون توجها نظريا، وقد لاقى مصطلح التاريخانية الجديدة «قبولا عريضا لدى جماعات النقد المابعد البنيوي، ونظريات الخطاب، إذ به عبر الدارسون الحدود فيما بين التاريخ والانثروبولوجيا والفن والسياسة والأدب والاقتصاد، وتمت الإطاحة بقاعدة اللاتدخل التي كانت تحرم على دارسي الانسانيات التعامل مع أسئلة السياسة والسلطة ومع ما هو صلب في حياة الانسان»[1].

يرى لحسن أحمامة في مقدمة ترجمته لكتاب **التاريخانية الجديدة والأدب** أن هذا النوع من القراءة هو ممارسة جديدة تحيل على الاشتغال على العلاقة بين التاريخ والأدب من حيث علاقة تشكلت بشكل مباشر أو غير مباشر بالنظرية ما بعد البنيوية، ولعل هذا ما جعل التاريخانية الجديدة تؤسس طرائق جديدة لدراسة التاريخ، ولوعي جديد بالكيفية التي

[1]– عبد الله الغذامي: النقد الثقافي–قراءة في الأنساق الثقافية العربية–، ص42.